رسائل تلّغرافيّة
(٢٦)

# آياتٌ تَحْتَاجُ إلى بَيَانٍ
# «الآيةُ الثامنة»


بلغه
الدكتور ابن الكيَّال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده ﷺ، **أما بعد**:

فهذه بفضل اللَّه ومَنِّه والذي لا تتم الصالحات إلا به سبحانه، الآية الثامنة في سلسلة: «**آيات تحتاج إلىٰ بيان**»، وهي الآية التي قال اللَّه فيها:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

**قال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ١٣٠):**

«قال البخاري [في «صحيحه» (٤٧٢٨)] حدثنا .... عن مصعب قال: سألت أبي -يعني: سعد بن أبي وقّاص-: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ أهم الحروريّة؟ [-يعني: الخوارج-] قال: لا، هم اليهود والنصارىٰ، أما اليهود فكذّبوا محمدًا ﷺ، وأما النصارىٰ كفروا بالجنّة وقالوا: لا طعام ولا شراب، والحروريّة الذين ينقضون عهد اللَّه من بعد ميثاقه»، وكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين». انتهىٰ من البخاري.

[قال ابن كثير:] وقال عليّ بن أبي طالب، والضحاك، وغير واحد: هم الحروريّة.

ومعنىٰ هذا عن عليّ رضي الله عنه: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنَّصارىٰ وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء علىٰ الخصوص، ولا هؤلاء، بل هي عامة في كل من عَبَدَ اللَّهَ علىٰ غير طريقة مرضيّة بحسب أنه مصيب فيها وأن

عمله مقبول وهو مخطئ وعمله مردود، فإن هذه الآية الكريمة مكّية قبل خطاب اليهود والنصارىٰ، وقبل وجود الجوارح بالكلّيّة [قلت: يعني علىٰ وَفق القاعدة المتفق عليها في أصول الفقه: «**العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**»، فكل من وُجدت حالته عليها فهي تصدق عليه، وهو داخل تحتها] كما قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢-٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي: نخبركم، ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾؟ ثم فسّرهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: عملوا أعمالًا باطلة علىٰ غير شريعة مشروعة مرضيّة مقبولة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي: يعتقدون أنهم علىٰ شيء، وأنهم مقبولون محبوبون». اهـ

**قلت**: وكذلك مثل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

والخوارج دخلوا تحت هذه الآية لضلالهم لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾؛ لأنهم كفّروا الصحابة وقاتلوهم وقتلوا أولادهم وأصفادهم، وهم في غاية الجهل المركّب المُطْبق وخالفوا الكتاب ولم يفهموه ولم نفقهوا سُنّة رسول اللّٰه ﷺ، كما قال ﷺ فيما رواه مسلم (١٠٦٦): «**يخرج آخر الزمان قوم أحداث الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون مِنْ خير البريّة يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم عند اللّٰه يوم القيامة**».

فوصفهم رسول اللّٰه ﷺ بالضلال المتنوّع: فهم صغار السنّ، وسفهاء في

عقولهم ومعتقدهم وأفكارهم، يقرؤون القرآن ألفاظًا بلا معنًىٰ، ولا فَهْم، ولا تدبّر، ولا إدراك، ولا وعي، لذلك قال النووي في «شرح مسلم» (٧/ ١٣٤): «قوله ﷺ: **أحداث الأسنان سفهاء الأحلام** معناه: صغار الأسنان صغار العقول». اهـ

**قال القرطبيّ عند هذه الآية في «جامعه» (١٠/ ٣٥٤):**

«فيه دلالة علىٰ أنّ مِنَ الناس من يعمل بالعمل وهو يظنّ أنه محسن وقد حبط عمله، والذي يوجب إحباط السعي: إما فساد الاعتقاد، أو المراءاة [ثم ذكر حديث البخاري المذكور عن سعد بن أبي وقّاص]، والآية معناها التوبيخ؛ أي: قل لهؤلاء: يخيب سعيهم وآمالهم غدًا، فهم الأخسرون أعمالًا». اهـ

## ● لفظ الضلال في القرآن واللغة يطلق على ثلاثة إطلاقات:

**قال الفقيه الأصولي محمد الأمين الشنقيطي، في كتاب «أضواء البيان» (٤/ ١٣٨-١٣٩):**

«وقوله تعالىٰ في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ﴾ أي: بطل واضمحل، والضلال يطلق في القرآن واللغة العربية ثلاثة إطلاقات:

**الأول**: الضلال بمعنىٰ الذهاب عن طريق الحق إلىٰ طريق الباطل، كالذهاب عن الإسلام إلىٰ الكفر، وهذا أكثر استعمالاته في القرآن، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

**الثاني**: الضلال بمعنىٰ الهلاك والغَيْبَة والاضمحلال، ومنه قول العرب: ضل السَّمْن في الطعام، إذا استهلك فيه وغاب فيه، ومنه بهذا المعنىٰ قوله تعالىٰ:

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤] أي: غاب واضمحلّ، وقوله هنا: ﴿ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ﴾ أي: بطل واضمحلّ، وقول الشاعر:

**ألم تسأل فتخبرك الدّيار    عن الحيّ المضلل أين ساروا؟**

أي: عن الحيّ الذي غاب واضمحل، ومن هنا تُسمّىٰ الدفن إضلالًا؛ لأن مآل الميت المدفون إلىٰ أن تختلط عظامه بالأرض، فيضلّ فيها كما يضل السمن في الطعام، ومن إطلاق الضلال علىٰ الدفن قول نابغة ذبيان:

**فآب مضلّوه بعين جلية    وغودر بالجولان حزم ونائل**

فقوله: «مضلّوه» يعني: دافنوه في قبره، ومن هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ [السجدة: ١٠] فمعنىٰ: ﴿ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنّهم اختلطت عظامهم الرميم بها فغابت واستهلكت فيها.

**الثالث**: الضلال بمعنىٰ الذهاب عن علم حقيقة الأمر المطابقة للواقع، ومنه بهذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٧]؛ أي: ذاهبًا عما تعلمه الآن من العلوم والمَعارف التي لا تُعرف إلّا بالوحي فهداك إلىٰ تلك العلوم والمعارف بالوحي، وحدّد هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ عن أولاد يعقوب: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]؛ أي: ذهابك عن العلم بحقيقة يوسف، ومن أجل ذلك تطمع في رجوعه إليك، وذلك لا طمع فيه علىٰ أظهر التفسيرات، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢] أي: تذهب عن حقيقة علم المشهود به بنسيان أو نحوه بدليل قوله: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]». اهـ

**وقال شيخ المفسرين الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤١-٤٤)، وذكر فيها من**

**الآثار (٢٣٣٢٦)- (٢٣٣٣٨) ومنها قال:**

«**٢٣٣٣٥**- حدثنا . . . عن أبي الطفيل قال: سأل عبد اللَّه بن الكواء عليًّا عن قوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ قال: أنتم يا أهل حروراء [الحرورية الخوارج]، وفي رواية «أنت وأصحابك».

قال الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ عَنَىٰ بقوله: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ كل عامل عمل عملًا يحسبه فيه مصيبًا، وأنه للَّه بفعله ذلك مطيع مُرْضٍ، وهو بفعله ذلك للَّه مُسْخط، وعن طريق أهل الإيمان به جائرٌ، كالرهبانية والشمامسة وأمثالهم من أهل الاجتهاد في ضلالتهم. . . .

● وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يقول: هم الذين لم يكن عملهم الذي عملوه في حياتهم علىٰ هُدًىٰ واستقامة؛ بل كانوا علىٰ جَوْرٍ وضلال، وذلك أنهم عملوا بغير ما أمرهم اللَّه به ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ يقول: وهم يظنون أنهم بفعلهم ذلك للَّه مطيعون، وفيما ندب عباده إليه مجتهدون، وهذا من أدل الدلائل علىٰ خطأ قول من زعم أنه لا يكفر باللَّه أحد إلا من حيث يقصد إلىٰ الكفر بعد العلم بوحدانيّته، وذلك أن اللَّه تعالىٰ ذِكْرُه، أخبر عن هؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية، أنّ سعيهم الذي سَعَوْا في الدنيا ذهب ضلالًا، وقد كانوا يحسبون أنهم مُحْسنون في صُنعهم ذلك، وأخبر عنهم أنهم هم الذين كفروا بآيات ربهم [كما قال تعالىٰ بعد آية هذا المقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، ولو كان القول كما قال للذين زعموا أنه لا يكفر باللَّه أحد إلا مِنْ حيث لا يعلم؛ لوجب أن يكون هؤلاء القوم في عملهم الذي أخبر اللَّه عنهم أنهم كانوا يحسبون فيه أنهم يحسنون صنعه، كانوا مُثابين مأجورين عليها، ولكن القول بخلاف ما قالوا، فأخبر جّل

ثناؤه عنهم أنّهم باللَّه كَفَرة، وأن أعمالهم حابطة». اهـ

**قلت:** وإنما ذكرت آخر كلام الطبري هذا؛ لأن ظاهره عدم العذر بالجهل، وليس كذلك بل إجماع السلف والخلف علىٰ العذر بالجهل للمسلمين، وفي هذا الباب كتبت كتابي «**قيام الحجة الرسالية وموانعها، وضوابط العذر بالجهل، البداية والنهاية**»، وتطرّقت فيه إلىٰ أبعد من عذر المسلم فحسب، بل العذر الجهل لمن لم يكن جاحدًا ومنكرًا بعد العلم، حتىٰ مع الكافر، وفصّلت فيه القول جدًّا، وخصصت ذلك بالذي لا يعلم فعلًا، فارجع إليه، وهو علىٰ موقعي «بي دي إف»، وفيه بحث يحتاج إلىٰ الاطّلاع، واللَّه المستعان وعليه التكلان.

وعليه، فهذه الكريمة بيّن اللَّه فيها من هم الأخسرون أعمالًا؟ وهم الذين حادوا عن الصراط المستقيم، والمنهج القويم، الذين قالوا وفعلوا علىٰ غير ما كان عليه النبيّ وأصحابه، بل زاغوا، وضلوا وأضلوا، وانحرفوا، وابتدعوا، واتبعوا الهوىٰ، وكان أمرهم فُرُطًا، ومنهج اللَّه ورسوله وصحابته الكرام الاتباع والانقياد وترك الابتداع، والاستقامة الحقة بعد الإيمان الصحيح، كما قال رسول اللَّه ﷺ: «**قل آمنت باللَّه ثم استقم**» [رواه مسلم (٣٨)]، وهذا الحديث الجليل هو الذي يُبيّن الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال، والرشاد من الغي، والسنة من البدعة، والموفقين أعمالًا، والأخسرين أعمالًا.

## • تنبيه في أنواع الضلال:

فلما كان قوله تعالىٰ في الآية الأم من المقال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ﴾ [الكهف: ١٠٤]، وبيّنت أنواع الضلال، ومنها الضلال بمعنىٰ الذهاب عن علم حقيقة الأمر المطابقة للواقع، وهو ما يجهله الإنسان لقلة المعرفة بالعلوم الشرعية، من الجهل الذي يظنه الجاهل حقًّا ويتقرب إلىٰ اللَّه به، في حالة غيابه عن الدليل الذي يدلّه إلىٰ

الحق، سواء كان هذا الجهل في جهل الدليل، أو دلالة الدليل ومعناه ومراده، أو الجهل بضعف الدليل من ناحية السند، أو من نناحية جهل النّسخ وأنّ الحكم تغير، أو كون الدليل عام خُصص، أو مطلق قُيّد، أو متشابه أُحكم، أو جهله بالمفهوم والمنطوق، والظاهر والمؤول، وغير ذلك مما يجعله في غياب عن الحق، ولو علمه لقال به والتزمه، أما أصحاب الهوىٰ فهم الزائغون عن الحق بعد ما عرفوه وعلموه وفهموه ثم جحدوا وأنكروا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

بين من ضل علىٰ جهل وغياب عن الحق، وبين من ضل علىٰ علم فرق عظيم وبون جليل، قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وعليه، فالضلال أنماط وأنواع، إذْ لا يستوي من ضل علىٰ جهل ومن ضل علىٰ علم وتحقيق ث أعرض وأنكر وجحد.

- وهذا يجعلنا أن نُنْزِل الناس منازلهم في الجهل والعلم، بدرجات الجهل ودرجات العلم، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، فهذه الآية تجعلنا نعذر الناس علىٰ المنهج المستقيم، والتفريق بين من يُعْذر ومن لا يُعْذر، ومنه من كان من أهل البدع والأهواء، وهو مُلبّس عليه الأمر ويجهل الحق، ويضل عنه بذهاب المعرفة عن كُنْه هذا الأمر وصفته وتفاصيله وأبعاده ووجوهه وحقيقته، وهذا من العدل والإنصاف، وبه تستقيم أمورنا وأحوالنا.

وإنّما أقول ذلك؛ لما أراه من تدنّي الدرجة العلمية عند غالب المسلمين، وغيابهم وذهابهم عن ما لا يسع المسلم جهلُه، وهو أبسط ما ينبغي أن يُعرف عن

عوام المسلمين، وهذا واقع حاديث ومستقر ومستمر ومتفشٍّ تفشيًا عظيمًا، مما يُلْزِمُنا العذر بالجهل علىٰ كافّة الأصعدة.

**ومن أقوىٰ ما يستدلّ به في هذا الباب الجليل:**

ما رواه البخاري في «صحيحه» (٧٠٦٢)، ومسلم (٢٦٧٢) أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن بين يدي الساعة أيامًا ينزل فيها الجهل ويُرفع فيها العلم ويكثر فيها الهرج، والهرج القتل**».

ولا يصل طالب العلم إلىٰ هذه الحقائق المُتَقَصِّية، إلّا بمزيد الاطلاع والبحث والتحقيق ببذل الوُسْع والاجتهاد؛ حتىٰ لا نُضيّق واسعًا، أو نُوسِّع مُحْكَمًا لا يحتمل إلا ظاهره، فإن للتيسير ضوابط، وإن للتشديد شروطًا وأسبابًا، وللتيسير والتشديد موانع، وكلّ علىٰ وفق الدليل المُحْكَم الدلالة والمعنىٰ والمراد، واللَّه الموفّق والهادي إلىٰ سواء السبيل، والحمد للَّه أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وصلىٰ اللَّه علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

**بلّغه**

**الباحث الشرعي الدكتور: عيد بن أبي السعود الكيَّال**

**دكتوراه من كلية الشريعة الإسلامية**

**جامعة الأزهر بالقاهرة**